موريتانيا من الحكم المباشر إلى الحكم المحلى

محمد عبد الرحمن بن عمار
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

إن حملة غورو Gouraud على آدرار 1908م– 1909م لم تحقق السيطرة الكاملة على البلاد، ومع أن خلفاءه قد تمكنوا من فرض سلام بتنظيم وحدات الأمن التي تجوب الصحراء، كما استطاعوا إبعاد الثوار إلى حدود مراكش وريودورو(وادى الذهب)، وتأمين الاتصال بين الأقاليم الخاضعة للسلطة الفرنسية فى إفريقيا البيضاء وإفريقيا السوداء، إلا أن تحقيق هذا الهدف قد تطلب عملا طويلا وصعبا استغرق ربع قرن، مما استنفذ كثيرا من الجهود والوقت كلف الفرنسيين أحيانا صفوة من رجالهم، ولم يصبح السلام نهائيا إلا بعد انهيار القوة القتالية للقبائل الموريتانية والقضاء على فلول المقاومة، لتدخل موريتانيا فى مرحلة الحكم الفرنسي المباشر.

I – تدعيم الاحتلال 1910م– 1914م

فى يناير 1910م باشر العقيد باتي Patey عمله كمفوض عام فى موريتانيا خلفا لغورو[1] ولم يكن باتى غريبا على موريتانيا، فقد كان على معرفة بكل مشاكلها لأنه كان يعمل مديرا عاما للمكتب العسكري للحاكم العام وليام بونتى William

[1] - Désiré (V), Histoire de la Mauritanie des origines à l'indépendance, Paris, Karthala, 1997, p 503.

Ponty، كما أنه سبق وأن تولى أعمال المفوض العام بالنيابة لمدة ثلاثة شهور من 2 أغسطس إلى 2 نوفمبر 1907م، فأهله ذلك مباشرة عمله على الفور، كما أن معرفته بالتيارات والاتجاهات والأحداث التى اقترنت بالمسألة الموريتانية من خلال عمله مع الحاكم العام بونتى قد زودته بكثير من الدهاء السياسي علاوة على الحزم الذى يتصف به كرجل عسكري.

لقد بدأ باتى حكمه بجولة تفتيشية فى موريتانيا زار خلالها منطقة شمامة ودوائر البراكنة وتجانت وغورغول، وخلال هذه الجولة قدمت بعض القبائل ولاءها، غير أن الأمر بالنسبة لباتى لم يكن يقتصر على مجرد خضوع القبائل وخلودها للسكينة، بقدر ما كان عليه أن يدعم الاحتلال الذى أتم غورو مرحلته المهمة بقوة السلاح، وذلك عن طريق وضع أسس ثابتة للحكم، ليضع سياسة ارتكزت فى المجالات المختلفة على القواعد التالية:

1- فى المجال السياسي

على منوال كبولانى Coppolani ومونتانيه كابديبوسك Montané Cabdibosc ، ميز باتى فى موريتانيا بين منطقتين مختلفتين: الأراضى المتاخمة للسنغال فى الجنوب وهي الإقليم الزراعي المكتظ بالسكان السود المسالمين" القبلة"، ثم فى الشمال بلاد الترارزة والبراكنة وتجانت وآدرار التى يؤمها قبائل رحل. وبينما احتفظ باتى للأراضى الجنوبية بنظامها الإداري المباشر، فإنه رأى أن تخضع المناطق الشمالية لنظام خاص أشبه بنظام المحميات، أساسه الاعتماد على المحاربين والرؤساء التقليديين، ويتمشى بقدر الامكان مع طبائع البدو وعاداتهم وتقاليدهم[1].

[1] - Désiré (V), op, cit, p 503.

وهذا يعنى أن باتى رأى أنه لكي يضمن ولاء جميع القبائل ينبغى أن يتعاون ليس فقط مع الزوايا، وإنما أيضا مع المحاربين، بمعنى أنه إذا أراد أن يدعم الاحتلال الفرنسي فى البلاد فعليه ألا يقلب أوضاع هذا المجتمع المحافظ بشكل لا تتقبله أفكار الناس، ولما كان الموريتانيون يرفضون طاعة رؤساء آخرين سوى أولئك الذين يصلون إلى الرئاسة تبعا للتقاليد المحلية أي عن طريق مركزهم وأصلهم وطبقتهم وشهرة عائلاتهم، فإن عليه أن يوفق بين المصالح الفرنسية وطباع هؤلاء القوم.

وتحقيقا لهذه السياسة الجديدة، رأى باتى أن تتجمع القبائل تحت سلطة بعض الرؤساء الذين تنصبهم الإدارة الفرنسية بعد أن يوافق عليهم مجلس الجماعة، وأن تكون سلطاتهم محدودة ومسؤولين عن الأمن الذى يكفلونه فى مناطقهم بتنظيم جماعات المحاربين التابعة لهم، على أن تساعدهم الإدارة الفرنسية عند الحاجة، ويمكن منح بعضهم لقب الأمير[1].

2- فى المجال الاقتصادي

أيقن باتى أن الهدوء لن يستمر إلا بزيادة ثروة البلاد سواء كان باستغلال المصادر الطبيعية أو بترويج التجارة بين موريتانيا والسنغال، وتوفير الحماية الكافية للقوافل، وخاصة قوافل الملحَ القادمة من تاودنى وكدية الجل فى اتجاه إفريقيا السوداء، ورأى أن الواجب السريع الملح هو زيادة مناطق الرعي بحفر الآبار ونشر الأمن بواسطة وحدات فعالة خفيفة الحركة. وكانت تعليماته صريحة فيما يتعلق بآدرار باعتباره منطقة القلاقل، حيث قال:"... إنه لمن المتفق عليه أننا لن ننسى واجباتنا تجاه القبائل المستقرة التى قدمت خضوعها مختارة ووضعت تحت حمايتنا، وليس من مصلحتنا تركهم دون حماية ضد نهب أعدائهم... إن

[1] - Désiré (V), op, cit, p 503- 504.

مراكز الحراسة فى آدرار بالذات يجب أن تكون متعددة لاتساع مناطق النخيل وكثرة المراعى. وهذا يحقق لنا أيضا المرونة التى علينا أن نحافظ عليها فى هذه المنطقة، كما يجب تطوير مصادر الثروة تبعا لما قررناه منذ وصولنا... مما يعمل على تقليل مشاكل التموين"[1].

ولعل باتى قصد بالمرونة، أن كثرة مواقع الحراسة تضمن له منع احتكاك القبائل والوقوف كحكم بينها فى منازعاتها، أو لعله يقصد أن تكفل له هذه المواقع سرعة دعم قوات الهجانة المكلفة بالمحافظة على الأمن فى أي اتجاه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد طلب باتى من حكام الدوائر أن يوضحوا للموريتانيين بما لا يدع مجالا للشك أن منفعتهم ترتبط بالمصالح الفرنسية، لأنه يعلم أنه من الصعب كسب تأييد القبائل الموريتانية إلا بهذا الأسلوب.

3- فى المجال العسكري

أدرك باتى أن الحاجة لم تعد ماسة إلى قوات متجمعة ثقيلة كتلك التى قامت بالغزو، بل إلى مجموعات خفيفة الحركة وقوية فى نفس الوقت للمحافظة على الهدوء والأمن، وهذا يعنى استبدال القوات العسكرية بقوات أمن بوليسية سريعة التنقل ولا تعتمد على نظام الإمداد الذى طالما تسبب فى متاعب كثيرة منذ كبولانى وحتى غورو.

ثم إن باتى كان يقدر الدور الذى يلعبه الجمل فى تشكيل مثل هذه الوحدات والمتابعة. ولما كان معظم قواته ما يزال من السنغاليين الذين لا تتفق خصائصهم مع هذا الاتجاه، فقد شجع أولا الرماة منهم على ركوب الجمل، وأمام مصاعب التجربة قام باتى بتجنيد بعض الشبان الموريتانيين فى وحدات موالية مؤقتة، ثم

---

[1] – سعد خليل، تكوين موريتانيا الحديث، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1977م، ص 459.

طورها بعد ذلك إلى وحدات نظامية[1] وبهذا الإجراء ضمن لهؤلاء الشبان دخلا ثابتا كجزء من خطة التهدئة التي اتبعها باتي. فربط بذلك مصالحهم ومصالح قبائلهم بالاحتلال الفرنسي، فضلا عن استغلال قدرتهم على التكيف مع الصحراء، والاعتماد في إعانتهم على الموارد المحلية ومن ثم التخلص من مشاكل قوافل التموين.

4- في المجال الإداري

عمل باتي على تحديد موقف كل قبيلة، واجتهد في مراقبة عدالة القضاة المحليين مع ترك الحرية لهم في ممارسة عملهم لأن الموريتانيين لا يميلون إلى الإجراءات القضائية الفرنسية، كما بادر بزيادة جماعات الخدمة الطبية وتوفير المرونة لها حتى يكفل سرعة انتقالها إلى الأماكن المختلفة. كما أصدر أوامره لحكام الدوائر بحمل الرؤساء الموريتانيين على إرسال بعض أولادهم إلى المدارس الإسلامية التي يتولاها بابه بن الشيخ سيديا والشيخ سعد بوه، على أن يتم ذلك بلباقة وبواسطة العلاقات الشخصية، وبطريقة لا تظهر بمظهر من يفرض سيطرته على هذه الضمائر التي تعودت تلقي التعاليم الدينية من الشمال[2].

وعلى العموم فقد تميزت سنة 1910م بالهدوء، وقد يعود ذلك في بعض أسبابه إلى وفاة الشيخ ماء العينين وإلى السياسة التي اتبع باتي في الإبقاء على حق الحرمة التي يحصلها المحاربون من القبائل التابعة لهم نظير حمايتهم، فقد ساعد ذلك على إزالة القلق الذي ساور المحاربون خشية أن يتضاءل دخلهم، فبدوا أقل ميلا للقيام بأعمال السطو، وأكثر اعتدالا في محاولة استرداد حقوقهم السابقة،

---

[1] - Désiré (V), op, cit, p 504.

[2] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 461.

وصارت الضرائب تجبى بسهولة مما ساهم فـي خفـض المعونـة المخصـصة لموريتانيا فى الميزانية العامة لغرب إفريقيا إلى النصف تقريبا[1].

وكانت سنة 1911 كسابقتها، ليستصدر باتى من الحاكم العـام أول قـرار بتنظيم الكادر الخاص بالهجانة الموريتانية التى أطلق عليهـا اسـم قـوات الأمـن النظامية، حيث شكلت وحدات من الهجانة الوطنيين والسود تحـت قيـادة ضـباط وضباط صف فرنسيين، وبدأت من العام الموالى (1912م) تجتـذب الكثيـر مـن المحاربين للانخراط فيها بتأثير الامتيازات التى منحت لأفرادها. و كان لنشاط هذه الوحدات أثر مباشر فى تدعيم الأمن فى جميع أنحاء البلاد.

لم يعكر هدوء 1910م– 1911م سوى بعض عمليات السطو المحلي التـى قوبلت بالردع السريع، وبعض الإشتباكات بين قبائل الاقلال ومـشظوف، وهجـوم قبائل أولاد غيلان على فصيلة هجانة كيفة[2].

وبالرغم من أن السلطات الفرنسية منذ عام 1911م قد نسقت دفاعـا قويـا يمتد من آدرار إلى تجانت ويصل حتى تمبكتو ضد الهجمات الشمالية الآتيـة مـن الصحراء أو من مراكش عبر موريتانيا، فإن منطقة الحوض ظلت تمثل ثغرة فـي هذه الجبهة الدفاعية، إذ لم يكن الفرنسيون قد احتلوه بعد، وأصبحت بذلك المنطقـة مركزا للمقاومة وتدبير الهجمات ضد القوات الفرنسية، فتمت إشاعة الفـزع بـين القبائل الخاضعة للإدارة الفرنسية فطلبت حمايتها ضد هذه الهجمات. كمـا طلـب السكان الخاضعون فى تمبكتو الحماية ضد الهجمات التى تستهدفهم من ولاته، فبـدأ كلوزيل Klozel حاكم السودان(مالى) يفكر فى الطرق التى تكفل له ذلك، فاجتـذب

---

[1] – فى مشروع الميزانية المقدم لسنة 1910 قدر أن يصل الدخل إلى 1.357.700 فرنـك ممـا يخفض المعونة المخصصة لموريتانيا فى الميزانية العامة إلى 765.500 فرنك.

[2] - Désiré (V), op, cit, p 504

إليه اعل ولد محمد رئيس قبيلة مشظوف أقوى قبائل الحوض ليرسل هـذا الأخيـر أخاه لبات إلى تمبكتو ليطلب رسميا احتلال ولاته[1]. ليتطابق ذلـك مـع الرغبـة الفرنسية التي ترى أن إنشاء موقع في ولاته يسهل لها مهمة تأمين الطريـق مـن تمبكتو إلى تاودني الذي تعبره قوافل الملح، كما أن هذا الموقع يساعد على تخفيض قوة حراسة القوافل، وتسهيل الاتصال بهجانة تجانت، وحمايـة منطقـة الـساحل الجنوبية والسودان(مالي).

وإزاء كل هذه العوامل قرر الحاكم العام بونتي في سبتمبر 1911م وضـع نهاية لحالة الاضطرابات في منطقة الحوض، واستقر الرأي على أن تقوم قوة مـن موريتانيا لاحتلال تشيت، وأخرى من تمبكتو لاحتلال ولاته، وكان الحاكم العام قبل ذلك قد اكتفى بتحسين العلاقات مع قبائل هذه المناطق دون احتلالها، غير أن الواقع أملى عليه العدول عن رأيه، حيث أصبحت تشيت وولاته أماكن استراحة وتمـوين المقاومين بعد عودتهم من الهجمات على تخوم بلاد السودان، ليصبح احتلال هاتين المنطقتين ضروريا.

بدأ باتي تقدمه على رأس قوة كبيرة من الهجانة في 9 يناير 1912م مـن تجانت في اتجاه الحوض على إثر وصول معلومات تفيد بأن الأمير سيد احمد ولد عيدَه ومجموعة من المقاومين في طريق العودة من هجمات كانوا قد شنوها حـول تمبكتو، ليكون من نتيجة ذلك اشتباك بين الطرفين تم خلاله اعتقال الأمير ولد عيدَه واحتلال تشيت[2].

وفي إطار جولته في تـاودني وصـلت العقيـد روليـه Roulet تعليمـات بالاستعداد لاحتلال ولاته، فبادر بإرسال رحلات استطلاع في 21 سبتمبر 1911م،

---

[1] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 464.

[2] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 466.

وفى باسكنو قابل روليه لبات فى 2 يناير 1912م الذى أعاد تأكيد ولاء قبيلته، ليدخل روليه ولاته فى 28 يناير 1912م، ثم واصل تقدمه بعد ذلك إلى تشيت حيث اتصل بقوة باتى فى 18 فبراير 1912م، وكان هذا أول اتصال بين وحدات السودان(مالى) وموريتانيا، وفى 28 فبراير من نفس السنة عاد روليه أدراجه إلى ولاته.

وقد دعمت هاتان العمليتان الهدوء واستتباب الأمن فى موريتانيا، وأصبح التعاون ميسورا بين موريتانيا والسودان(مالى)، وخاصة بعد إنشاء المواقع المحصنة وأماكن تمركز وحدات الهجانة فى النقاط الحساسة من منطقة الحوض.

كانت عملية تشيت آخر عمل يقوم به باتى فى موريتانيا قبل أن يسلم المنصب للمقدم موريه Mouret فى مارس 1912م، وقتها كانت معظم قبائل الحوض قد خضعت للسلطة الفرنسية، واستتب الأمن فى هذا الإقليم، أما فى الغرب فكانت شركات الصيد قد بدأت تمارس نشاطها فوصل إنتاجها إلى بضع مئات من الأطنان من الأسماك الطازجة والمملحة، وفى الشمال تولى الرائد جيرهارد Gerhardtأول قيادة لقوات الأمن النظامية فى البلاد[1].

وعلى الرغم من الهدوء النسبي الذى عاشته موريتانيا خلال عامي 1910م- 1911م واحتلال منطقة الحوض 1912م، فإن سلطات الاحتلال الفرنسي ظلت تراودها المخاوف من تجدد الغارات على مواقعها، تلك المخاوف تأكدت خلال شهر أكتوبر 1912م حيث قامت جماعة من الرقيبات باجتياح الأراضى الموريتانية، وعادت أدراجها إلى الشمال حيث أصبحت فى مأمن من ملاحقة الهجانة.

---

[1] -- سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 467.

وقد عرفت بداية سنة 1913م حادثا أربك السلطات الفرنسية فى موريتانيا وذكار وباريس، حيث تمكن محمد الأقظف ولد الشيخ ماء العينين فى العاشر من يناير من مفاجأة وحدة الهجانة الفرنسية التى يقودها الملازم مارتان Martin فى منطقة لبيرات، تم خلال هذا الهجوم قتل قائد الوحدة وسلب جميع معداتها من أسلحة وذخائر وجمال[1].

لقد أحدث هذه الغارة دويا كبيرا فى جميع الأوساط الفرنسية، فأعادت إلى الأذهان مأساة يونيو1908م التى أبيدت فيها القوة الفرنسية وقتل قائدها جورج مانجان Géorge Mangin[2]. وفى موريتانيا وقع الخبر كالصاعقة وسط الهدوء الذى ساد البلاد لمدة ثلاث سنوات، كما أثبت أن رجال الشيخ ماء العينين لا زالوا يمثلون تهديدا خطيرا. وفى فرنسا أثار هذا الحادث ضجة فى الصحافة التى تناولته بالتحليل والنقد، ومنها من ربطه بحادث أسر الأمير سيد أحمد ولد عيدّه فى تشيت فى يناير 1912م.

تزامن وقوع حادث يناير 1913م مع استلام موريه منصبه الجديد خلفا لباتى، ليبدأ فى وضع خطة للرد بقوة على حادث لبيرات حتى لا يترك لهذا النصر الذى أحرزه رجال المقاومة أن يؤتى ثماره بين القبائل، ليتقدم فى 9 فبراير 1913م من أطار نحو الشمال على رأس حملة قوامها 400 فردا جيدة التسليح خفيفة الحركة ومر بكدية الجل ومنطقة الزمور التى لم تكن القوات الفرنسية قد وطئتها من قبل، واستمر فى تقدمه حتى وصل فى 28 فبراير السمارة التى وجدها خالية،

---

[1] - Désiré (V), op,cit, p 507 et Edouard Berthomé, Méhariste en Mauritanie, en colonne vers Smara 1907-1913, Karthala, 1996, p 138.
[2] - Désiré (V), op, cit, p 497.

وهناك أحاطت الحملة بقصبة الشيخ ماء العينين وتعمد موريه أن يدخل ويخرج علانية من الزاوية المهجورة ثم أمر بنسفها قبل رحيل الحملة[1].

وخلال جولات استطلاعية واستجواب بعض المواطنين ثبت أن هناك تجمعات ضخمة في الشرق تستعد لمهاجمة الوحدات الفرنسية في موريتانيا، فقرر موريه التقدم إليها، فانسحبت هذه التجمعات إلى هضبة حماده[2]، لتستدرج القوة الفرنسية إلى المناطق الجبلية. لكن الحملة لم تقع في هذه المصيدة لأن موريه تفادى التورط في القتال بهذه المنطقة، و قرر الاتجاه نحو الجنوب مع اتخاذ الحذر لأنه توقع أن تحاول قوات محمد الاقظف اللحاق بالحملة، وفعلا صدق حدس موريه فبعد يومين بدأ الاشتباك في 10 مارس 1913م واستمر ثلاثة أيام عند وادى تجليات Oued Tegliatt وكان هذا الاشتباك من أشد ما عرفته المنطقة[3]، ومع أن الحملة فقدت عددا كبيرا من أفرادها[4]، فإنها تمكنت من تبديد رجال محمد الاقظف وتشتيتهم بعد أن تكبدوا خسائر تفوق تلك التي تكبدتها القوات الفرنسية التي عادت إلى أطار في 27 مارس 1913م.

كان لمعركة وادى تجليات آثار بعيدة المدى، ليس فقط في موريتانيا، بل وصل مداها إلى جنوب المغرب.

أولا: كانت هذه المعركة بمقياس عصرها من الإنجازات البارعة غير العادية، ففي خلال شهر ونصف قطع موريه 1750 كلم، واجتاز أراضي لم يسبق استكشافها[5]

---

[1] - Désiré (V), op, cit, p p 507-508.

[2] - Edouard Berthomé, op.cit, p 149.

[3] - Désiré (V), op, cit, p 509.

[4] – لقد فقدت القوات الفرنسية خلال هذا الاشتباك 30 قتيلا من بينهم الملازم مورلو Moréllo و50 جريحا من بينهم النقيب جرهارد الذى توفي بعد ذلك متأثرا بجراحه، انظر:

Edouard Berthomé, op.cit, p112-161, et Otton Loyewski, Rezzou sur l'Adrar, Rufisque, Imprimerie du gouverneur général de l'A.O.F, 1942, p 106

[5] - Désiré (V), op, cit, p p 508 - 509.

وكانت لديه الجرأة للتوغل فى مناطق مجهولة، ثم الاشتباك فى أعنف معركة تمت فى موريتانيا حتى ذلك التاريخ أمام حشد من الرجال المسلحين الأقوياء لم تواجهه قوة فرنسية فى هذه المنطقة من قبل والانتصار عليها.

لقد قطع الانتصار فى معركة وادى تجليات الطريق على القبائل المترددة، فلم يعد أمامها أمل فى الانضمام إلى معسكر المقاومة، كما أنه دعم من خضوع القبائل الموالية للفرنسيين، وكان محمد الاقظف قبل غارة لبيرات قد اتصل بمحمد ولد اخليل رئيس الرقيبات الساحل الذى سبق وأن خضع للفرنسيين ليخبره عن إعداد غارة قوية بمساعدة محمد ولد معيوف رئيس قبيلة أولاد آكشار، ولولا النصر فى معركة وادى تجليات لأعلن محمد ولد اخليل انشقاقه على الفرنسيين ومعه كثير من القبائل الموريتانية ولتغير الوضع فى موريتانيا[1].

ثانيا: أظهر هذا الانتصار للجماعات التى انضمت إلى الهيبة ومحمد الأقظف أن القوات الفرنسية قادرة على التحرك بنفس السرعة، وأنها لا تتردد فى أن تصل إليهم فى عرينهم بالساقية الحمراء الذى اعتقدوا أنه فى مأمن من الهجوم، ومن جهة أخرى فإن هذه الحملة قد بينت أن مسألة استتباب الأمن والسلام فى موريتانيا وخاصة فى آدرار، يرتبط بإحكام السيطرة على مناطق الساقية الحمراء ووادى درعة، وصار واضحا أن الفرنسيين لا بد سيعملون على تحقيق هذه السيطرة إن عاجلا أم آجلا، سواء بالتراضى أو بالقوة، وبالتالى بدأ اليأس يدب فى صفوف المقاومين، خاصة وأن سلطات إفريقيا الغربية الفرنسية فى دكار بالتعاون مع المقيم

---

1 – يذكر أن الأمير سيد أحمد ولد عيده قد شارك إلى جانب موريه فى هذه المعركة، وبالتالى رد إليه اعتباره كأمير لآدرار مكافأة له على ذلك، انظر Désiré (V), op, cit, p 509

العام فى المغرب، أخذت تعمل على التقرب من الهيبة وأعوانه والدخول فى علاقات معهم بغرض استقرار السلام نهائيا على التخوم الموريتانية.

ورغم النتائج التى حققتها حملة موريه من الناحية العسكرية، فإنها من الناحية الدبلوماسية أحدثت ارتباكا وقلقا فى دوائر باريس[1] بسبب انتهاك الحدود الأسبانية فى الساقية الحمراء، مع أن الرأي العام الفرنسي كان مقتنعا فى ذلك الوقت بأن تراخى السلطات الأسبانية فى مستعمرة ريودورو (وادى الذهب) هو الذى هيأ لجماعات المقاومة أن تتلقى الأسلحة المهربة، وأن تشكل وتنظم غاراتها على موريتانيا، وقد علقت الصحافة الفرنسية قائلة:"... ونحن نضيف أننا ضحايا ضعف جيراننا(تقصد الأسبان فى ريودورو) فى توطيد النظام فى أراضيهم التى يملكونها بالاسم فقط، فريودورو متروكة تماما، وضباط الداخلة لا يمارسون أي عمل فى الداخل... ومما يثير الدهشة أن الأسبان على قدر عنفهم فى التمسك بقوتهم فى هذه المنطقة، لم يتوصلوا بعد إلى السيطرة على قبائلهم فى تلك الأراضى التى تعد فيها الهجمات ضدنا..."[2].

لقد كان موريه على علم بتردد السلطات الفرنسية فى معالجة موضوع الغارات القادمة من ريودورو، بل إنه كان واثقا أن اختراقه حدود الساقية الحمراء سيسبب ارتباكا فى الدوائر الحكومية بباريس، ومن ثم فقد أخذ على عاتقه مسؤولية هذا العمل، ورتب نفسه على إرسال برقية تعلن رحيله بطريقة يكون فيها بعيدا عندما يصل الرد من دكار إلى أطار حيث لا يتيسر لأحد حينئذ أن يلحق به لإخباره بالرد.

---

[1] - Désiré (V), op, cit, p p 509.

[2] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 480.

أبدى وزير المستعمرات مورل Morel انزعاجه من امتداد تقدم الحملة جهة الجنوب المغربي الذى لم يكن حينذاك من البرنامج المخطوط، مما قد يؤثر على تطور العمل فى المحمية المغربية، إذا ما لمس المغاربة توسعا فرنسا كبيرا فى موريتانيا نحو الشمال، وطلب من الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية توضيح أسباب تجاوز موريه لمنطقة بئر أم أكرين التى اتفق على أن تكون حدا أقصى للهجمات المضادة، وعليه فإن مثل هذه التصرفات التى أثارت التساؤلات حول سياستنا في جنوب المغرب وأثرت على علاقاتنا مع دولة أجنبية يجب ألا تتكرر.

أما وزير الخارجية بيشون Pichon، فإنه لم يكن أقل انزعاجا من وزير المستعمرات، إذ قال:"... فبناء على الاتفاق الفرنسي الأسباني الموقع فى 3 أكتوبر 1904م(المادة 6) وكذلك اتفاق 7 نوفمبر 1912م، فإن إقليم السماره يعتبر جزءا من المستعمرة الأسبانية فى ريودورو، وليس هناك أي نص فى اتفاق 27 يونيو 1900م يعطى للقوات الفرنسية حق تعقب الهاربين فى هذه المستعمرة"[1].

لقد كانت موقف الحاكم العام بونتى فى دكار على عكس موقف كل من وزير المستعمرات ووزير الخارجية، حيث اتخذ موقف التأييد الكامل لما قام به موريه، فكان رده حازما فى الدفاع عنه، وأشاد بشجاعته وبعد نظره، وفى إطار تبريره لتصرف موريه قال بونتى:"... وفيما يخص العقيد موريه، فإنه لم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك... وأن مبادرته الشجاعة قد أمنت موريتانيا ضد أكبر خطر كان يمكن أن يهددها، و لولا تقدمه نحو السماره ومعركته الناجحة لتعرضت موريتانيا لغزوة ضخمة من حوالي ألف رجل، وهذا معناه القضاء على كل وحدة تقابلها هذه القوة المتعصبة، واحتمال محاصرة أي موقع عن مواقعنا، وإجبارنا أن

---

[1]- نفس المرجع، ص 480.

نبدأ من جديد، فى ظروف أكثر صعوبة من العمليات التى أدت فى عام 1906م إلى مأساة النيملان وحصار تجكجة. إن موقفنا السياسي فى موريتانيا، الذى كان يمكن أن تؤثر عليه مأساة لبيرات، قد أصبح الآن أكثر صلابة عما كان عليه قبل هذا الحادث المؤسف..."[1].

والواقع أن هذه الوقفة الصلبة من الحاكم العالم بونتى ضد ما سمي حينذاك بتخاذل وتنصل السلطات الفرنسية، تذكرنا بوقفته فى شهر يوليو 1909م بشأن قرار الحكومة سحب حملة آدرار وتعليمات وزير المستعمرات لتنفيذ هذا القرار، وكما أتاح بونتى لغورو فرصة تحقيق أهدافه فى إتمام احتلال آدرار وفرض السلام الفرنسي فى البلاد متغاضيا عن تعليمات باريس، فإنه بالمثل عمل على مساندة موريه فيما قام به، واجتهد فى الحصول على حق تعقب المهاجمين داخل الأراضى الأسبانية أو على الأقل حمل الأسبان على توفير قوات أمن فى منطقة ريودورو، كما أنه رفض ما ذكره وزير المستعمرات من أن حملة موريه يمكن أن تؤثر على العمل الفرنسي فى المغرب وأوضح أن العكس صحيح، مؤكدا أن التعاون بين قوات المغرب وموريتانيا سيحقق حماية فعالة لأراضينا ولمراقبة الساقية الحمراء.

وإذا كان بونتى لم يوفق فى تحقيق أهدافه بالتعاون بين قوات المغرب وموريتانيا، فإنه على الأقل نجح فى إيقاف التحامل على موريه، ومن ثم فقد عاد موريه إلى آدرار بعد فترة وصفت بأنها إجارة قصيرة. ولضمان استمرار الأمن قام موريه بإعادة تنظيم القوات وتدعيمها، واستكمال قوة الأفراد وتدريبهم، وفى نفس الوقت الذى كان يأخذ فيه هذه التدابير العسكرية بدأت مفاوضات سلام بمساعدة الشيخ سعد بوه مع ثلاثة من إخوة الهيبه ولد الشيخ ماء العينين[2]، فأرسلوا ممثليهم

---

[1] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 481.

[2] - Désiré (V), op, cit, p p 509.

إلى موريه للتعبير عن رغبتهم العيش فى سلام مع السلطة الفرنسية فى موريتانيا، ولضمان ولاءهم وافق موريه على إعادة ممتلكاتهم فى آدرار والسماح لهم بفتح المدارس القرآنية[1].

لكن أمنية موريه فى موافقة أسبانيا على حق المطاردة فى ريودورو لم تتحقق وكان يجب عليه الانتظار حتى عام 1934م، لكي يتم الربط بين قوات إفريقيا الغربية الفرنسية وقوات المغرب.

أما فى شرق موريتانيا، فبعد خضوع منطقة الحوض، رؤي توزيع المسؤوليات وتحديد نطاق العمل فيما بين سلطات مستعمرتي موريتانيا وأعالي السنغال والنيجر ضمانا للتعاون بينهما لذا صدر مرسوم فى 23 ابريل 1913م نص على الحدود بين المستعمرين، التى حددت كالآتى:

1- من مجرى كاراكورو حتى كنكوصه.

2- من هذه المنطقة مرورا بالعيون العتروس حتى الحدود الشمالية للحوض الشرقي.

ومعنى هذا أن دائرة ولاته والنعمة اعتبرت بموجب هذا المرسوم ضمن حدود السودان الفرنسي. ولعل السلطات الفرنسية أرادت تقسيم منطقة الحوض فيما بين المستعمرتين ضمانا لمراقبتها أو لتقسيم قبائلها بين تبعيات إدارية مختلفة لتباعد بينها وتمنعها من الاتحاد فى تجمع معاد[2].

وفى أواخر عام 1913م كانت لا تزال هناك بعض الهجمات فى الحوض، ولكن فى معظمها تتصدى لها الهجانة الفرنسية فى السودان التى تمكنت من ضد

---

[1] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 484.

[2] - Thompson (Virginia) and Adloff (Richard), French West Africa; London 1958, pp 147-169.

هجومين، كان للنصر فيهما مثل ما لحملة موريه من تدعيم الاحتلال في الشمال، ليصبح بعد ذلك خضوع قبائل الحوض نهائيا، وتأكد ذلك عندما قامت سلطات مستعمرة السودان بتنمية الإقليم اقتصاديا وتنظيمه تحت الإدارة الفرنسية.

وفي11 نوفمبر 1913م أبلغ وزير الخارجية الفرنسي زميله وزير المستعمرات أنه سيسلم المعلومات التي جمعت بعد هذه الغارات إلى السفير الفرنسي في مدريد ليطلب من وزير الدولة الأسباني أن يفرض مراقبة شديدة على شواطئ الصحراء الأسبانية.

وكأن هذه الهجمات كانت تمثل آخر أعمال العنف الكبيرة في البلاد، فبعد فشل الغارات في تجانت وآدرار والحوض، وبعد حملة موريه في الساقية الحمراء ثبت للقبائل المعادية لفرنسا أن مهنة الغزو أصبحت غير مضمونة النجاح، وفضل كثير من الرؤساء المحاربين الإنضمام للجانب المسالم في ظل الإدارة الفرنسية، وفي فبراير 1914م عندما عاد موريه إلى آدرار ليقوم بجولته الأخيرة قبل انتهاء مدته، عمل على استكمال المباحثات التي كان قد بدأها منذ أكتوبر 1913م مع محمد ولد اخليل و تم الاتفاق على قبول خضوع الرقيبات الساحل ومنحهم الأمان بشروط معقولة على أن يكون هذا الخضوع نهائي وأن أي ناقض له لأي سبب سيعاقب بمنتهى الشدة[1].

ولكي يظهر محمد ولد اخليل حسن نيته أمام جميع الموريتانيين، وعزمه على أن يكون خضوعه نهائيا، ذهب إلى دكار ومعه شيخ الرقيبات محمد البخاري، يصحبهم أمير آدرار ولد عيده وأمير التراررزه أحمد سالم، وكذلك بابه بن الشيخ سيديا حيث قدموا ولاءهم إلى الحاكم العام بونتي في 20 مايو 1914م.

---

[1] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 486.

والوقع أن بوادر استتباب الأمن كانت قد بدأت تظهر منذ مطلع عام 1914م، ففي يناير افتتحت أول مدرسة فرنسية في أبي تلميت خصصت لأبناء الرؤساء وأعيان البلاد، وكانت جهود موريه في مفاوضاته الطويلة مع قبائل الرقيبات الساحل، آخر عمل يقوم به في موريتانيا، وعند ما سلم مهام منصبه إلى المفوض الجديد العقيد أوبسييه Obissier كانت البلاد قد بدأت مرحلة جديدة من الأمن والسلام استمرت طوال الحرب العالمية الأولى.

II- الحرب العالمية الأولى والهدوء في موريتانيا 1914م- 1918م

من أغرب الظواهر التي يقابلها المتتبع لمراحل الحكم الفرنسي في موريتانيا، ذلك الهدوء الشامل الذي عم البلاد خلال فترة الحرب العالمية الأولى، فبينما كان من المتوقع عند وصول خبر اندلاع الحرب بين فرنسا وألمانيا أن تتفجر الثورة بين القبائل المناهضة للوجود الفرنسي في موريتانيا، فإن الأمر كان على العكس تماما، إذ لم يثر هذا الخبر مشاعر الموريتانيين ولم يؤد حتى إلى عودة الغارات المعادية للفرنسيين.

وإذا كان دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا قد أقلق الفرنسيين للارتباطات الدينية الإسلامية، فإن الدعوة إلى الحرب المقدسة التي صدرت من اسطنبول، لم يتجاوب معها مسلمو موريتانيا، إذ لم يكن العثمانيون يتمتعون لدى الموريتانيين بالتقدير الكافي، وأكثر من ذلك كان الموريتانيون يجهلون كل شيء عن تركيا.

ولتفسير ظاهرة الهدوء في موريتانيا خلال الحرب العالمية الأولى رغم تخفيض عدد الضباط وضباط الصف الفرنسيين بنسبة كبيرة ورغم ترحيل وحدات الوطنيين السود بعيدا عن المنطقة للاشتراك في القتال، مما يهيء فرصة مواتية

لعناصر المقاومة، رغم هذا كله فإن الهدوء فى موريتانيا خلال الحرب يعود فى أسباب الرئيسية إلى:

1- حملات البطش الفرنسية خلال السنوات الثلاث السابقة على الحرب، وكانت آخرها حملة موريه التى تتبع فيها رجال المقاومة إلى داخل الساقية الحمراء ليعطى بذلك مثلا لما يمكن أن يحدث للجماعات غير المسالمة، وكانت هذه الحملات قد أضعفت قدرة رجال المقاومة على الأعمال الهجومية، فى الوقت الذى لم يكن فيه من السهل استعاضة الأسلحة بسبب إحكام فرنسا رقابتها على موانئ التهريب، إضافة إلى أن خسائر المقاومين فى الجمال سهلت على القوات الفرنسية ملاحقة المقاومين و تعقبهم، مما يزيد من قدرة القوات الفرنسية على ردع المقاومين[1].

2- عدم اكثرات الموريتانيين بالحرب خاصة وأن أوامر التعبئة التى أصدرتها الحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية لخدمة أغراض الحرب قد استثنتهم، كما أن ابتعادهم عن أحداث الحرب كان له تأثير مباشر، إذ فقد الموريتانيون اهتمامهم بها، ومن ثم لم يعرفوا كيف يستغلون هذه الفرصة.

لقد كان العقيد أوبسييه يدرك تقلب الأحوال وعدم استقرارها فى موريتانيا، ولذلك عمد إلى اتخاذ سياسة تعتمد على محورين:

الأول: تكثيف نشاط وحدات الأمن الصحراوية(الهجانة)

الثانى: مهادنة العناصر المعادية وخاصة قبائل الرقيبات فى الشمال.

وعلى الرغم من أن هذه الفترة قد وصفت بالهدوء، فإنها عرفت بعض الغارات على مواقع آدرار(1915م) وتجانت والحوض وموقع أغادس بالسودان الفرنسي(1916م)[2]، الذى شهد أعنف وأخطر حصار على يد قوة كبيرة من

---

[1] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 492.

[2] - Désiré (V), op, cit, p p 511-512.

الطوارق المناهضين للسلطة الفرنسية وقد تميزت هذه الأحداث عن سابقاتها بكثـــرة العدد والعتاد.

وفى ديسمبر 1916م عين العقيد هانرى غادن Henri Gaden مفوض فرنسا فى موريتانيا، فافتتح عهده فى عام 1917م بالتوصل إلى نهاية طيبة للمفاوضـــات التى استمرت لسنوات طويلة مع قبائل الرقيبات، وقد ساعده فى ذلك حالة الجفـــاف غير العادي فى ذلك العام الذى قضى على مراعى الشمال التى تـــستخدمها قبائـــل الرقيبات وأولاد إدليم، فبعد أن تمكن من تصفية رواسب الماضى بينهم وبين أميـــر آدرار، سمح لهم بحرية الرعي والمرور فى الأراضى الفرنسية كأصدقاء أجانـــب مقابل تعهدهم بعدم التعرض القبائل الخاضعة للفرنسيين، كما فرض علـــيهم دفـــع ضريبة دخل قدرها 100/1 من الجمال[1].

وكان غادن يدرك أن هذا الاتفاق قليل القيمة، لأن القبائل التى وافقت عليه، تقع مضاربها خارج نطاق سيطرته ولا يمكنه إلزامهم بتعهداتهم، إلا أنه يريد مـــن وراء ذلك أن يفوت الفرصة على الهيبة حتى لا يتمكن من لمّ شمل هذه القبائل تحت لوائه تمهيدا لشن حرب مقدسة بمعاونة الألمان.

غير أن غادن لم ينخدع بما تم تحقيقه، إذ كانت هناك متاعب كثيرة تنتظره:

أ- فالهيبة مازال قوة يحسب لها حسابها، وتلتف حوله كتلة من قبائل المقاومة الذين يمنعون أي عمل من السلطات الفرنسية أو من المخزن ضد قبائـــل ارقيبـــات وادى الذون وتكنه وأولاد بسباع.

ب- وفى موريتانيا كان أمير آدرار ما يزال يدبر الغارات ضد الفرنـــسيين وكـــان وراء بعض الغارات على قبائل أولاد غيلان واديشللى لصالح قبيلة أولاد عمنى[2].

---

[1] - Ibid, p 512
[2] - Ibid, p 513

جـ- فقدت الإدارة الفرنسية أحد ركائز سياستها فى المنطقـة، ففـى 12 يوليـو 1917م توفي الشيخ سعد بوه الزعيم الديني فى الجنوب وحليف الفرنسيين.

د- كانت سنة 1917م سنة جفاف بالنسبة لموريتانيا، حيث كان موسـم الأمطـار شحيحا، فقلت المحاصيل وأصبح على الإدارة الفرنسية أن تبذل جهدا إضافيا فـى عمليات حصر توزيع المعونات المادية على القبائل.

والغريب أنه رغم كل هذه المصاعب والأزمات، ظل الوضع فى موريتانيا هادئا طوال سنة 1917م، وفى سنة 1918م قام الهيبة شأنه فى ذلك شأن رؤسـاء حركات المقاومة فى المغرب، بمضاعفة نشاطه معتمدا على المـساعدة الألمانيـة والأسبانية فأعلن أحد أبناء الطالب أخيار أن موقف الفرنسيين ميؤوس منه، وأنهم قد بدأوا الرحيل من المغرب، وأن الهيبة قد تسلم الأموال و الأسلحة الكافية من الألمان والأتراك. وبدا أن الدعوة للحرب المقدسة قد أصبحت وشيكة، فإذا ما اندلعت فـى المغرب فإنها ستنتقل إلى موريتانيا[1].

وفى آدرار كانت الرقابة الدقيقة للأمير ولد عيدَه، قد أتاحت لقائـد دائـرة آدرار العثور على مراسلات من الطالب أخيار إلى الأمير يخبره فيها باتحاد كلمـة مسلمى المنطقة واعترافهم بالهيبة رئيسا دينيا ودنيويا، ويؤمل فى مساعدته[2]، فظهر لغادن أن الأمر لم يعد يحتمل التأخير، فبادر إلى اتخاذ عدة إجراءات:

1- بدأ غادن يحرض رؤساء القبائل على الاتصال بالأمير ولد عيدَه أو مراسـلته لحثه على الذهاب إلى سان لويس للدفاع عن نفسه ونفي شائعات أحيكـت ضـده[3]، وفى سان لويس احتجزه غادن وفرض عليه إقامة جبرية.

---

[1] - سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 504.

[2] - Désiré (V), op, cit, p513.

[3] - L'Afrique Française, novembre 1918, pp 385-386, (dans l'Adrar Mauritanien).

ب- أما في تجانت فقد أسند غادن الإمارة إلى واحد من ألد أعداء السلطة الفرنسية سابقا، وهو عبد الرحمن بن بكّار ولد أسويد احمد.

جـ- تفرغ غادن لمسألة الرقيبات التي طالما أثارت القلق، وقد لاحظ غادن أن محمد ولد اخليل رغم وعوده لم يكن جادا في تنفيذ اتفاق عام 1917م.

د- بما أن عام 1918م تميز بأمطار عزيزة، فقد هيأ غادن فرص عمل لكثير من الموريتانيين، كما بذل جهدا في زيادة المحاصيل الغذائية وتحسين إنتاجها، واستعان على ذلك بعلاقاته الطيبة مع الجميع.

وهكذا تمكن غادن بسياسته المرنة والحازمة في نفس الوقت، من أن يدعم الموقف الداخلي في موريتانيا، وأن يمنع مجموعة قبائل الشمال من التكتل تحت راية الهيبة خلال الفترة الحرجة التي شغلت فيها فرنسا بالجبهة الأوربية، وكانت مبادرات غادن وأسلوبه قد استرعى انتباه الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية انجلوفان An Goulvant ووزير المستعمرات فاتفقا على استبقائه مفوضا للحكومة العامة بموريتانيا، وذلك لكي تتاح له مواصلة سياسته في فترة ما بعد الحرب لإلمامه التام بشؤون المنطقة.

وسرعان ما ظهرت نتائج أعمال غادن، إذ بدأت بوادر التفكك في التجمع المعادي للفرنسيين في الشمال فطلبت بعض فروع قبيلة أولاد ادليم في يناير 1919م معاملتهم كأصدقاء أجانب بنفس الشروط التي سبق أن اتفق عليها مع قبيلة الرقيبات، كما أن أهل الشيخ ماء العينين بدأت فيهم الانقسامات على أساس اختلاف المصالح، وكان أولهم الطالب أخيار الذي طلب استقباله في أطار ليقدم خضوعه وولاءه، وقد تم ذلك في 29 مارس 1919م بعد أن ووفق على طلبه بالضمانات التالية:

* أن يقيم في محيط محدود

* أن يترك أحد أبنائه كرهينة فى أطار عند عائلة محترمة
* أن يتعهد بعدم التدخل بأي شكل فى السياسة الداخلية لموريتانيا.

وفى يونيو 1919م صحب بابه بن الشيخ سيديا الطالب أخيار إلى دكار حيث قدمه للحاكم العام انجولفان الذى أكد له إعادة أموال أسرته فى آدرار، وتوطدت العلاقة بعد ذلك بين بابه بن الشيخ سيديا والطالب أخيار فتوجها إلى أبى تلميت، وأثناء إقامته معه طلب الطالب أخيار من بابه بن الشيخ سيديا أن يزوجه إحدى بناته فوافق على ذلك شريطة أن يمارس الطالب أخيار ضغطه على إخوته لتقديم خضوعهم للسلطة الفرنسية[1].

وأثناء إقامة الطالب أخيار فى أبى تلميت وصلته أخبار وفاة الهيبة، وانتخاب امربيه ربه خلفا له، وكان الطالب أخبار قبل هذا قد أرسل للهيبه (أي قبل أن تصله وفاته) رسالة يطلبه فيها الإقتداء بما فعل وإعلان الخضوع للسلطة الفرنسية، غير أن انتخاب امربيه ربه على رأس مجموعة أهل الشيخ ماء العينين جعل الطالب أخيار يقتنع بعدم استجابة امربيه ربه لهذا النداء لأن القبائل التى انتخبته لن تسمح له بذلك، بل إنها ستعمل على عزله إن أصبح لا يمثل عنصر الاستقلال، وعندئذ سيحل محله من هو أقدر منه على أعمال العنف.

ومع أن محمد الاقظف قد أبدى استعداده لتقديم خضوعه إذا ما حصل على ما يوازى الراتب الذى يصله من الأسبان[2]، وبالرغم من أن المناضلين فى الشمال قد انقسموا بين الرغبة فى المسالمة، والخوف من حملة مستقبلية يقوم بها الفرنسيون، والأمل فى مساندة أسبانية، فإنه بات من الواضح أن هدف الترويض الذى سعت إليه الإدارة الفرنسية فى موريتانيا لم يتم تحقيقه أثناء الهدوء الذى ساد

[1] - Désiré (V), op, cit, p 514
[2]- Désiré (V), op, cit, p 514

البلاد خلال الحرب العالمية الأولى، ومن ثم أصبح لزاما عليها انتظار الحل النهائي الذى يجب أن يأتى من الشمال، ولكي يتم ذلك كان لا بد للفرنسيين أن يعملوا على تضييق الحلقات حول عناصر المقاومة فى الساقية الحمراء وجنوب المغرب.

III- التنسيق مع الشمال الإفريقي 1919م – 1933م

خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى، كان الشغل الشاغل للسلطات الفرنسية هي تحقيق الاتصال والتنسيق بين الشمال الإفريقي وإفريقيا الفرنسية جنوب الصحراء. ولم يكن هذا الاتجاه جديداً، وما البعثات التى تتالت منذ القرن 19م سواء من الجزائر فى الشمال، أو من إفريقيا السوداء فى الجنوب، بالإضافة إلى الإستفادة من الصحراء، إلا من أجل الربط والاتصال بين الجزائر وباقى المستعمرات الفرنسية فى غرب إفريقيا.

وخلال تولى ليوتى منصب وزير الحربية أجاز مجلس الوزراء فى 12 يناير 1917م، قرارا بإنشاء قيادة مؤقتة للأقاليم الصحراوية، الذى كان خطوة هامة على طريق الحل النهائي لمشكلة اختلال الأمن فى الصحراء التى طالما أزعجت الفرنسيين، والواقع أن المناطق الصحراوية بين تونس والجزائر شمالا، وبين النيجر والسودان(مالي) جنوبا، لم تكن تثير قلق الفرنسيين وإنما كانت المناطق الصحراوية شمال شرق موريتانيا هي مصدر القلق الفرنسي، حيث اتخذتها قبائل الرقيبات وأولاد إدليم وغيرها من القبائل، ممرا لهجماتها الخطيرة والمدبرة بإحكام، معتمدين على عدم إلمام الفرنسيين بمسالك وطبيعة هذه الأراضي، لتصبح هذه المنطقة ميدان النشاط المنسق بين وحدات الهجانة فى الجزائر وموريتانيا خلال سنوات ما بعد الحرب، وهو العمل الذى اضطلعت به القيادة الجديدة للأقاليم الصحراوية.

و من أجل سد هذه الثغرة الدفاعية بدأ التنسيق مبكرا بعد الحرب العالمية الأولى، فقد هيأ غادن المفوض الفرنسي في موريتانيا لقائد عام الأقاليم الصحراوية مقابلة مع قبائل الرقيبات في إبريل 1919م، كما تعمد التلميح بالقوة ولعله يقصد من وراء ذلك إشاعة جو من الرعب بين هذه القبائل حتى يستمر الهدوء الذى ساد موريتانيا طوال مدة الحرب، ويتسع الوقت أمامه لاكتشاف معالم المنطقة الشمالية الشرقية من موريتانيا تمهيدا لوضع خطة لتأمينها.

وبعد أن استكمل تنظيم وتخصيص وحدات الهجانة التابعة لقيادة الأقاليم الصحراوية كشف القائد العام للأقاليم الصحراوية في 1 أغسطس 1919م عن توجهاته و أسلوب العمل والتعاون بين هذه الوحدات، ومن ثم أصبح الموقف مهيأ لإجراء أول تنسيق واتصال بين الجزائر وموريتانيا.

لقد تم هذا الاتصال بواسطة عمليات استكشافية قامت بها وحدات الهجانة خلال فترتين زمنيتين:

الأولى: خلال فترة الهدوء التى عمت البلاد من1920م حتى 1923م استمرارا لحالة الهدوء التى سادت البلاد طوال فترة الحرب.

الثانية: خلال فترة الجفاف الذى ساد المنطقة من 1925م حتى 1930م، والذى استغلته السلطات الفرنسية فى استئناف عمليات الاستطلاع والتوسع، ومن ثم زيادة المناطق التى تسيطر عليها.

وفى 1 يناير 1920م لم تعد موريتانيا إقليما عسكريا، بل أصبحت مستعمرة منضمة إلى مجموع مستعمرات إفريقيا الغربية[1]، هذا التحول لم يزد عن كونه إجراء تنظيميا على مستوى الإدارة الاستعمارية الإفريقية، ومن ثم فإنه لم يثر اهتمام الموريتانيين حيث لم يغير من أحوالهم السائدة.

[1] - Désiré (V), op, cit, p 517.

لقد توسطت هاتين الفترتين، أعمال عنف قامت بها القبائل المعادية للوجود الفرنسي، وكان لها أثرها في توقف عمليات الاستكشاف، ففي أواخر عام 1923م تولى قيادة حركة المقاومة محمد تقي الله ولد اعل الشيخ المعروف بوجاهة[1]، فتزايدت الغارات وتطورت في أهدافها وأسلوبها، فلم تعد تهتم بالسلب وإنما بمقاومة التوسع الفرنسي، واتخذت شكل هجمات محكمة التدبير ضد فصائل الهجانة كما أنها اتبعت أسلوب حرب العصابات وركزت كل ضرباتها حول آدرار.

1- المقاومة 1923م- 1925م

بعد فترة الهدوء النسبي الذى أعقب إعلان موريتانيا مستعمرة فرنسية انتعشت المقاومة من جديد بحلول عام 1923م، وقد يعود هذا الانتعاش في أحد سببه إلى انتهاء فترة الجفاف التى عرفتها موريتانيا فى الفترة ما بين 1916م- 1922م و التى كانت سببا فى إعلان بعض القبائل خضوعها للإدارة الفرنسية، تلك القبائل التى ما لبثت بعد تحسن الأوضاع أن أعلنت العصيان[2] وقد يكون أيضا تأثر المقاومة الموريتانية بثورة الأمير عبد الكريم الخطابى وانهزام أسبانيا أمام مقاومة الريف فى الشمال المغربي من الأسباب التى أدت إلى إنتعاش المقاومة الموريتانية التى وجدت مؤطرا جديدا يقودها إلى إحراز انتصارات مهمة على القوات الفرنسية فى بعض المعارك التى دارت بين الطرفين.

أ- معركة اشريرك فى 27 نوفمبر 1923م

فى بداية اكتوبر 1923م تلقى رئيس دائرة أطار إخبارية تفيد أن مجموعة من المقاومين تلقت تدريبا عسكريا فى الساقية الحمراء بقيادة أحمد ولد حمادى وأن وجهتها ضرب الحوضين وأزواد، كما علمت السلطات الفرنسية أيضا بتحركات وجاهة واستعداداته لتوجيه ضربة للفرنسيين فى آدرار، وبعد التيقن من هذه

---

[1] - Ibid, p 519.

[2] - Gillier (C), La pénétration en Mauritanie, Paris, 1926, p 248.

المعلومات أصدرت السلطات الفرنسية فى آدرار أوامرها إلى الملازم بردين Berdines للتصدى لهذه التحركات ومنع رجال المقاومة من دخول أطار، وفى الوقت الذى كان يطارد فيه مجموعة من المقاومين هاجمته قوة بقيادة وجاهة فى منطقة اشريريك فى 27 نوفمبر 1923م، كان من نتائج هذا الهجوم قتل الملازم بردين وأسر من لم يقتل من قوات ونقلهم إلى ريودورو ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفع العقيد بنز Benz فدية كبيرة للإفراج عنهم[1].

وكان هجوم اشريرك هو أول هجوم كبير تقوم به قبائل المقاومة[2] منذ هجوم محمد الاقظف على لبيرات فى يناير 1913م وقد لاحظ الفرنسيون أن الأساليب القتالية فى هذا الهجوم اختلفت عن الأساليب القتالية السابقة، كما أنها أظهرت للفرنسيين قدرة المقاومين على المناورة والتخطيط الذى يعتمد عنصر المفاجأة وسرعة التحرك.

ب- الهجوم على مركز انواذيبو فى 26 مارس 1924م

بعد نجاح معركة اشريريك ورغبة منه فى تضييق الخناق على الفرنسيين قاد وجاهة فى 26 مارس 1924م هجوما على حامية الجيش الفرنسي فى مركز انواذيبو وخلال الساعات الأولى من الاشتباك تبين للمقاومين أن القوات الفرنسية تمتلك أسلحة جديدة، مما أخل بميزان القوى بين الطرفين أرغم وجاهة ورجاله إلى الانسحاب من أرض المعركة، ورغم ذلك فإن الحامية الفرنسية تكبدت خسائر جسيمة، فيما تمكن المقاومون من العودة إلى المنطقة الأسبانية[3] بكل غنائمهم دون أن تتمكن القوة الفرنسية من مطاردتهم.

جـ- معركة بوقرن فى 5 مايو 1924م

---

[1] - Désiré (V), op, cit, p 520.
[2] - L'Afrique Française, décembre 1924, p 651, (Un rezzou contre la Mauritanie).
[3] - Désiré (V), op, cit, p 520.

يبدو أن وجاهة غير بالانتصارات التى حقق فى المعارك السابقة، وطموحا منه فى أن تظل هزائم الفرنسيين على يده مستمرة، قام فى 5 مايو1924م بهجوم على وحدة فرنسية فى منطقة بوقرن، وقبل الهجوم على المنطقة كان وجاهة قد احتل تجمعا مواليا للفرنسيين، و منه بدأ تنفيذ هجومه، فساهم ذلك فى انهيار معنويات الفرنسيين ظنا منهم أن التجمع الموالى قد انقلب عليهم. ورغم أن المقاومين استطاعوا اختراق صفوف القوات الفرنسية، إلا أن استشهاد القائد وجاهة أثر على معنويات رجال المقاومة وكان خسارة لا تعوض، فى الوقت الذى كان فيه نصرا معنويا للجيش الفرنسي الذى تأثرت سمعته كثيرا منذ معركة اشريريك. ولم يمض وقت طويل حتى تولى قيادة المقاومة اثنان من محاربى قبائل الرقيبات الأشداء وهما احمد ولد حمادى وإسماعيل ولد بردى[1].

[1] - Désiré (V), op cit, p 520.

د- معركة لقديم فى 23 أكتوبر1924م

فى بداية أغسطس 1924م حصلت السلطات الفرنسية فى آدرار، على معلومات تفيد بأن مجموعة من رجال المقاومة توجد بالقرب من كدية الجل تحاول الإغارة على كل من شنقيط وتجكجة وربما الحوضين وأزواد.

ومحاولة من الفرنسيين اعتراض سبيل رجال المقاومة لمنعهم من مواصلة السير إلى الهدف وقع الاشتباك بين الطرفين فى فجر يوم 23 اكتوبر1924م[1]، ويبدو أن الاشتباك كان اشتباكا عرضيا وقع بين رجال المقاومة وفرقة فرنسية كانت تبحث عن المراعى، فأدرك المقاومون أن المعركة لم تنته بعد، وأن الفرنسيين لا محالة سيقطعون عليهم الطريق بفرقة لا بد وأن تكون أحسن تجهيزا ليقع الاشتباك الأساسي فى منطقة لقديم.

ورغم عدم التكافئ بين الطرفين، فإن رجال المقاومة صمدوا أمام القوات الفرنسية لمدة أربع ساعات ونصف، كانت سجلا للبراعة القتالية لهؤلاء الرجال الذين لم ينسحبوا إلا بعد أن نفدت مؤنهم الحربية[2].

لقد كانت معركة لقديم انتقاما من الفرنسيين لاستشهاد وجاهة، خاصة وأن قائدها هو أحد الأصدقاء المقربين من وجاهة.

هـ- معركة الطرفاية فى 3 إبريل 1925م

تعتبر هذه المعركة من أشد المعارك التى خاضها الفرنسيون خلال مراحل احتلال موريتانيا، ورغم أن قائد رجال المقاومة قد استشهد فى هذه المعركة، ورغم الخسائر المادية و البشرية واستمرارها لأيام ثلاثة بلياليها[3]، فإن رجال المقاومة استطاعوا أن يصمدوا أمام القوات الفرنسية ويلحقوا بهم الهزيمة.

---

[1] -L'Afrique Française, Mai 1925, p 233, (La police de la Mauritanie).
[2] -L'Afrique Française, Mai 1925, p 233, (La police de la Mauritanie).
[3] -Désiré (V), op cit, p 520, et L'Afrique Française, Mai 1925, op cit, p 233

فبعد استشهاد قائد رجال المقاومة انسحب المقاومون بغية تنظيم صفوفهم، ليعودوا إلى ساحة القتال مرة ثانية على أن يقاتلوا حتى يقتل من الفرنسيين ما يعادل قائدة المقاومة، فحلفوا ألا يبرحوا المكان ولن يعودوا حتى يهزموا الفرنسيين[1].

لقد إكتسبت هذه المعركة بالذات وزنا خاصا لدى الفرنسيين، وكثر وصفها وشرح أحداثها، وتعددت التعاليق حولها، فقد كانت أطول معركة بين الهجانة وقبائل المقاومة[2]، كما أنها أثبتت أن هذه القبائل قد وصلت إلى مستوى من التنظيم وحسن القيادة وبراعة المناورة بشكل يهدد بخطر جسيم، واعترفت السلطات الفرنسية أن هذا الهجوم كان يهدف إلى تدمير فصيلة الهجانة[3].

وقد يكون من الأسباب التى زادت من حدة المعارك خلال سنة 1924م هو الوفاة المفاجئ لبابه بن الشيخ سيديا فى 10 يناير 1924م ليفقد بذلك الفرنسيون نفوذا طالما مارسه لتهدئه مثل هذه الاضطرابات.

إذا كانت الهجمات قد استمرت وبشكل متقطع بعد عام 1925م، فإنها لم تؤثر على الطبيعة المسالمة التى غمت المنطقة منذ ذلك العام بسبب الجفاف الذى أصاب البلاد لبضع سنوات (1925م-1930م)[4] فاحتاجت قبائل الشمال إلى مراعى الجنوب، ليستغل الفرنسيون ذلك الهدوء فى ممارسة إدارة سلمية تربط مصالح الموريتانيين بالسلطات الفرنسية. وشغل غادن باهتمامات جديدة لم تكن موجودة من قبل، كتخفيف وطأة الجفاف عن القبائل الموريتانية وخاصة البعيدة، وذلك باتباع

---

[1] -Gillier, op cit, p 246.

[2] -L'Afrique Française, Mai 1925, op cit, p 233, et Novembre 1925, p 583, (un rezzou en Mauritanie).

[3] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 325.

[4] - L'Afrique Française, septembre 1925, p 474, (A l'ordre de l'armée).

سياسة جديدة لإمداد القبائل باحتياجاتها، وتحسين مستوى الدخل بإنشاء جمعيات التسليف.

و في يوليو1927م تولى فورنييه Fournier المهام خلفا لغادن، فوجد أن الموقف مرض، فالاضطرابات التي سادت دوائر خليج ليفرييه والترارزة وآدرار خلال أعمال المقاومة السابقة قد هدأت، وأصبح من الممكن استئناف استكشاف الأطراف الشمالية من موريتانيا[1] لتكلف وحدات من الجزائر وموريتانيا باكتشاف المناطق الواقعة بين البلدين، فتم الاتصال بين هذه الوحدات في 9 يناير1929م، ورغم أن هذا الاتصال جاء بعد 8 سنوات من الاتصال الأول في 25 ديسمبر 1920م، فإن الجديد فيه هو أن الوحدات كلفت بدراسة الأرض وملاءمتها للسيارات وهبوط الطائرات تمهيدا للمعمليات المستقبلية[2].

وفي عام 1930م قام الملازم بروسي Brosset على رأس مفرزة من هجانة شنقيط، بجولة قطع خلالها وفي 13 يوما 565 كلم في مناطق لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت[3]، لكنها كانت الجولة الاستكشافية الأخيرة، ذلك أن أعمال العنف بدأت تظهر من جديد في جولتها الثانية والأخيرة.

لم تكن عناصر المقاومة قد هدأت تماما خلال فترة السلام التي سادت البلاد من عام 1925 حتى 1930م، بل تخللتها هجمات متفرقة، وبعض المحاولات لو كتب لها النجاح لمثلت خطرا على الوجود الفرنسي في المنطقة، ففي عام 1927م سعى محمد المامون بإيعاز من امربيه ربه الى الدعوة لحرب مقدسة ضد الفرنسيين، واتفق مع احمد ولد حمادي وإسماعيل ولد بردي على أن يكون مكان

---

[1] - Désiré (V), op cit, p p 522-523.

[2] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 529.

[3] - Désiré (V), op cit, p 523.

تجمع المقاتلين فى كلتة الزمور، غير أنهما تغيبا عن الموعد[1]، وبالتالي لم يأت هذا التحرك أكله.

وفى عام 1928م استجاب لحركة أبناء الشيخ ماء العينين كثير من رجال المقاومة، ليعم الخوف كل القبائل الموريتانية الخاضعة، عندما انتشرت شائعات تفيد بقرب الهجوم على آدرار، لفاتبعت الإدارة الفرنسية فى آدرار خطة جديدة لتنظيم الدفاع عن المنطقة تمثلت فى أن تتولى كل قبيلة محاربة وكل مجموعة من البدو مراقبة قطاع معين بحيث تتكون من هذه القطاعات شبكة ضيقة تصعب على أي قوة التسلل منها[2]. ورغم ذلك فقد تمكنت مجموعة بقيادة احمد ولد حمادى من تتسلل وتقع فى اشتباك مع محاربى المنطقة، وقد شجعت هذه العملية أحمد ولد حمادى على استئناف هجماته على وحدات الهجانة. ففى نهاية 1930م انتهز فرصة انتشار جمال هجانة شنقيط للرعي فى منطقة كدية الجل، وفى طريقه لتنفيذ المأمورية هاجم مخيما من قبيلة السماسيد فأفقده ذلك عنصر المفاجأة، وحست وحدة الهجانة بوجوده فهاجمته لكنه تمكن من العودة مع مجموعته دون أن تتمكن وحدة الهجانة من اللحاق به[3].

غير أن هذه الهجمات لم تأخذ طابع المقاومة المنظمة، وبالتالى فإنها لم تثر قلق الفرنسيين، على عكس تلك التى بدأت فى سبتمبر 1931م وانتهت فى سنة 1933م. وخلال هذه الفترة شنت عناصر المقاومة 13 هجوما عنيفا فى كافة أنحاء البلاد، واشترك فى مقاومة هذه الهجمات وحدات الهجانة الموريتانية الأربع(أطار، شنقيط، وتشيت واكجوجت)، كما شارك السودان(مالي) فى صد هذه الهجمات بوحدتي(الحوض، و تاودني)، واعترف الفرنسيون أنهم خسروا فى هذه الهجمات

---

[1] - Ibid, p 521.
[2] - Ibid, p 523.
[3] - Ibid, p 524.

وخلال سنة واحدة أي من 1 سبتمبر 1931م إلى 1 سبتمبر 1932م 25% من قوة ضباطهم، 35% من ضباط الصف، 20% من الرماة السينغاليين، 12% من الحرس الموريتاني[1].

وفى أغسطس 1931م حاصرت مجموعة من المقاومين بقيادة احمد ولد حمادى معسكر الهجانة فى توجنين، ورغم مقاومة المعسكر ووصول قوة نجدة إلا أن المقاومين ألحقوا خسائر كبيرة بقوة المعسكر و أوشكوا على إبادته[2].

لقد تزامنت معركة توجنين مع دعوة محمد المامون إلى حرب مقدسة ضد النصارى وطردهم[3]، بالتالى كانت هذه المعركة معركة إبادة، وقد تكون الخوارق التى نعت بها محمد المامون وحب إلحاق الهزيمة بالفرنسيين والقضاء عليهم من الأسباب التى جعلت رجال المقاومة يستميتون من أجل القضاء بشكل نهائي على هذا المعسكر، ومع أن احمد ولد حمادى وقواته قد انسحبوا قبل تحقيق هدفهم بشكل كامل، فإن وحدة هجانة أطار قد انتهت كقوة مؤثرة عقب هذا الهجوم، فكانت معركة توجنين هي أول حادث خطير بعد 6 سنوات من الهدوء منذ معركة الطرفاية فى 3 إبريل 1925م[4].

وبعد هجوم آخر ناجح فى الحوض[5] فكر محمد المامون فى شن هجوم كبير على آدرار، مما أثار موجة من الخوف بين القبائل الخاضعة للإدارة الفرنسية فى آدرار، فى وقت كانت فيه تصرفات أمير آدرار توحى بقرب اتخاذه موقف العداء للإدارة الفرنسية وانضمامه إلى حركة محمد المامون، مما قد يشكل خطرا على الوجود الفرنسي فقررت السلطات الفرنسية فى آدرار منعه من ذلك بأي وسيلة.

---

[1] - L'Afrique Française, septembre 1932, pp 513-514, (pour assurer la sécurité menacée).
[2] - Désiré (V), op cit, p 524.
[3] - Otton Loyewski, op cit, p 35.
[4] - Désiré (V), op cit, p 524.
[5] - Otton Loyewski, op cit, p 45.

ففى نهاية فبراير 1932م لاحظت قوة هجانة شنقيط أن الأمير سيد احمد ولد عيدَه تصرف تصرفات مريبة بنقله مخيمه جهة الشمال، فأصدرت السلطات الفرنسية فى أطار أمرا للنقيب لكوك Le Cocq لإعادة الأمير نحو الجنوب[1]، فكلف لكوك الملازم موسات Mussat بهذه المهمة، وفى 10 فبراير وصل موسات إلى مخيم الأمير الذى لم يكن موجودا وقتها، وفى 13 فبراير حضر الأمير فى ثياب من يكون فى رحلة صيد أو يعد لهجوم[2]. فطلب الملازم موسات من الأمير أن يعود معه إلى الجنوب ويلتحق بالمخيمات فى شنقيط فقبل الأمير غير أنه طلب من موسات أن يمهله حتى يأخذ قسطا من الراحة[3]، وفى 14 فبراير أخذ الأمير وموسات طريقهما إلى شنقيط غير أن الأمير ورفاقه قد خططوا لعملية اغتيال الملازم ورفاقه الذين لم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب فأمر الأمير مخيمه بالرحيل فى تلك الليلة إلى حيث يكون بعيدا من متناول القوات الفرنسية التى لا محالة ستثأر لقتلاها.

وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه لكوك عودة الملازم موسات وصل بعض من نجا من العملية ليحكى الخبر، فأمر قائد دائرة آدرار لكوك بتتبع الأمير لكن بشرط أن يحقق ذلك نجاحا[4]، لهذا قاد لكوك هذه المطاردة فى عناد غريب يدفعه إليه رغبته فى الإنتقام وشعوره بعدم تقبل الهزيمة، حتى أنه قطع مسافة 750 كلم منها 500 كلم خالية من أي مصدر للمياه وغير معروفة، كما توجد فيها بعض القبائل المعادية وربما تخطط لغارة[5].

---

[1]- Désiré (V), op cit, p 525.
[2]- Otton Loyewski, op cit, p46-47.
[3] - Désiré (V), op cit, p 525.
[4] - Otton Loyewski, op cit, p50- 52.
[5]- Ibid, p 54.

وفى 19 مارس1932م باغتت القوات الفرنسية مخيم الأمير سيد احمد ولد عيدَه فى منطقة وديان الخروب بتيرس لتدور معركة غير متكافئة من حيث العدة والعتاد، خاصة وأن الفرنسيين ما قاموا بمغامرة المطاردة فى منطقة مجهولة لديهم إلا من أجل القضاء على الأمير مهما كلفهم ذلك لتنتهى هذه المواجهة باستشهاد الأمير[1] بعد سجل حافل بالنضال ضد التوسع الفرنسي فى موريتانيا يستحق أن يسجل له ذلك، لكن استشهاد الأمير ولد عيدَه لا يعنى زوال الخطر، بل على العكس زاد الأمر تعقيدا.

أولا: كانت الغزوة الكبيرة مازالت أخبارها تتواتر، وقد عرف أنها بقيادة أحمد ولد حمادى واعل ولد مياره[2].

ثانيا: لم يكن لدى الفرنسيين لمجابهة هذا الهجوم سوى قوات الهجانة النظامية فى أطار و شنقيط فقط، إذ لم يعد فى الإمكان بعد مقتل الأمير الإعماد على أنصاره وأقربائه.

ثالثا: كانت قوة هجانة أطار قد أعيد تشكيلها بالجهد بعد مأساة توجنين فى سبتمبر 1932م، أما قوة هجانة شنقيط التى كانت موجودة حينذاك فى البيده El Beyd (البيظة) فقد فقدت عنصر الحركة بعد استنزاف الجمال فى المطاردة التى قام بها لكوك، ومن ثم زالت عنها صفة عنصر الهجوم، ولعدم قدرها على المطاردة لم يعد أمامها إلا أن تنتظر فى مكانها إلى أن تهاجم.

أمام هذه الوضعية كان على قائد دائرة آدرار أن يوحد قوتي هجانة أطار وشنقيط تحت قيادة لكوك فى مكان متوسط بين أطار والبيظة. ومع أن هذا الإجراء قد عرَض مخيمات القبائل الموالية للإدارة الفرنسية لغارات من قبل جماعة أحمد

[1] -L'Afrique Française, mai 1932, pp 316-317, (Un assassinat en Mauritanie).
[2] -Désiré (V), op cit, p 523.

ولد حمادى واعل ولد ميارة، إلا أنه فى نفس الوقت أنقذ هجانة شنقيط التى لو أنها تحركت من البيظة فى أواخر مارس 1932م لتعرضت للإبادة من قبل غزوة كانت فى طريقها إلى السودان(مالى) بقيادة لعروسى ولد بابه حمو[1]، الذى فشل فى احتراق الدفاعات الفرنسية وهزم[2]، ويعود ذلك فى أسبابه الرئيسية إلى إتباع القوات الفرنسية أسلوبا حديثا فى سرعة الاتصال اللاسلكى ورصد تحركات المهاجمين بالطيران، وتوجيه القوات من الجو لمقابلة الهجوم فى أحسن الظروف[3]، فكان ذلك مؤشرا واضحا نحو الإخضاع النهائي.

وعلى الرغم من ذلك ففى 18 أغسطس 1932م أصيبت وحدة هجانة الترارزة الإقليم المشهور بالأمن بنكبة حيث فوجئت فى أم التونسى بهجوم كاسح تتزعمه قبيلة أولاد إدليم تم خلاله إبادة الوحدة بشكل كامل بما فى ذلك قائد الوحدة ماك ماهون Mak Mahon [4] وتمكن رجال المقاومة من العودة إلى الشمال، وقد أحدث هذا الهجوم دويا كبيرا فى موريتانيا وفرنسا، ففى موريتانيا سيطر الغضب على الفرنسيين الذين تساءلوا هل سنبقي فى هذه الوضيعة الدفاعية التى دفعنا خلالها دماء أحسن جنودنا، أم نقرر الذهاب إليهم ونعاقب المقاومين ونجبرهم على السلم[5]؟.

وفى ديسمبر 1932م وصلت معلومات مفادها أن مجموعة الرقيبات المعادية قد نقلت مخيمها إلى مناطق الرعي الجيدة فى منطقة مجميك شمال كدية الجل، فعين لكوك مجموعة كبيرة من قوات الهجانة تحت أمرة ستة ضباط للبحث

---

[1]- Désiré (V), op cit, p 526, et Otton Loyewski, op cit, p 72.
[2] - L'Afrique Française, octobre 1932, pp 582-583, (le rezzou du 6 avril 1932).
[3] – سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص 535.
[4]- Désiré (V), op cit, p 526, et Otton Loyewski, op cit, p 77.
[5]- Otton Loyewski, op cit, p 77-78, et L'Afrique Française, septembre 1932, op.cit, pp 513-514

عن تجمع الرقيبات، وفي فجر 31 يناير 1933م تمت مفاجأة تجمع الرقيبات، لتدور معركة حاسمة بين الطرفين استشهد فيها اعل ولد ميارة وتمكن البعض الآخر من الهرب[1]، فكانت هذه المعركة نهاية المقاومة وبداية استسلام القبائل المعادية للوجود الفرنسي في موريتانيا.

ففي نفس السنة عرفت المنطقة الشمالية حفافا كاسحا، أضطرت خلاله القبائل المعادية لفرنسا طلب الأمان، الذي قبلته السلطات الفرنسية في آدرار، وكان الحاكم العام دسميه Descmet قد خاطب الحضوراستعلاء مذكرا إياهم أنهم فعلوا الكثير، مما اضطر الفرنسيين إلى استعمال القوات للتأكيد أنهم السادة، ثم قرأ بعد ذلك بنود الاتفاقية:

- الغنائم المستولى عليها حتى هذا اليوم لن تعاد.
- كل المرتبات والمكافآت التي كانت موجودة سابقا تعتبر لاغية.
- الالتزام بدفع الضريبة مثلهم مثل كل الخاضعين الإدارة الفرنسية.
- تحريم المرور شمال خط معين دون تصريح بذلك.
- المسؤولية الجماعية لفروع الرقيبات[2].

وبذلك استسلمت آخر القبائل غير المسالة في الشمال بعد أن فقدت قدرتها القتالية، فكانت حملات العقوبة من الفرنسيين وأساسا الجفاف الذي ساد منطقتهم من الأشياء التي أرغمهم على الخضوع، فقد كان احتياجهم لأراضي متسعة لتجوال ورعي مواشيهم وإعادة تنميتها بعد الخسائر الفادحة التي أصابتهم، يفوق أي شعور آخر بالمقاومة أو القتال.

---

[1] - Désiré (V), op.cit, p 528 et Otton Loyewski, op.cit, p 88.
[2] -Désiré (V), op.cit, p 528.

وهكذا فإن السلام الذى أراد كبولانى أن يحقق بالتوغل السلمي والوعود المعسولة، وحاول غورو الحصول عليه بالحملات العسكرية الضخمة، لم يستقر فى موريتانيا إلا بواسطة وحدات الهجانة خفيفة الحركة التى استخدمت نفس أسلوب الموريتانيين فى القتال، والتى ما كانت لتصل إلى هذه النتيجة لولا التنسيق مع هجانة الجزائر فى الشمال الأفريقي.

غير أن السلام الأخير لم يتحقق إلا بعد الانتصار الذى حققته فرنسا فى جنوب المغرب فى شهري فبراير ومارس 1934م[1]، وقد تطلب الإعداد لهذا النصر عدة سنوات من العمل الدؤوب فى المجال السياسي والعسكري.

وبناء على اقتراح العقيد ترانكي Trinquet وافق المقيم العام الفرنسي فى المغرب والحاكم العام لإفريقيا الغربية على برنامج من ثلاث مراحل ينفذ خلال شتاء 1934، وصادق وزير الحربية الفرنسي على هذا البرنامج:

1- إجراء اتصال بين القوات الجزائرية المغربية وبين القوات الموريتانية عند عيون عبد المالك وبئر أم اكرين، يتقابل فيها ممثلو الجانبين لتنظيم الموضوعات التى تهم الجزائر والمغرب وموريتانيا فى نطاق قيادة التخوم بشكل يضمن وحدة العمل.

2- إقامة موقع دائم فى بئر أم اكرين، وإنشاء موقع نصف دائم فى عين بنتيلى و الغردان واجمار واعوينت الأقرع و عيون عبد المالك.

3- تمهيد الطرق التى تربط هذه المواقع المختلفة و الأراضى المجاورة التى تصلح لهبوط طائرات الإغاثة.

وبذلك تكون فرنسا قد أمنت حدودها مع الجزائر والمغرب، وأصبح على كل قبيلة تريد التجول فى المراعى لا بد أن يسمح لها أقرب قائد وحدة هجانة على

---

[1] - Désiré (V), op.cit, p 555.

أن تقوم بحصر ممتلكاتها و خاصة الأسلحة، وصار من السهل على السلطات الفرنسية تنظيم قيادات وطنية و تعتمد على رؤساء تختارهم من المولين مكلفون بتوصيل أوامر الإدارة والسهر على تنفيذها، وبهذا يكون احتلال البلاد قد اكتمل فعليا، ولم تعد السلطات الفرنسية تخشى من اعتداءات قبيلة الرقيبات بعد أن تمت السيطرة على مناطق رعيهم.

لقد ساهمت السياسة الاستعمارية الفرنسية فى بروز الوعي والإحساس بالوطنية لدى شعوب المستعمرات الفرنسية، فتمثل ذلك الإحساس فى ظهور أحزاب سياسية ومنظمات طلابية ونقابات عمالية بدأت تفرض وجودها وأفكارها على فرنسا وتعبئ الشعوب ضد سياستها. مما فرض على فرنسا نهج سياسة جديدة تمكنها من اكتساب هذه البلدان التى كانت بأمس الحاجة إليها، تلك السياسة التى كان مؤتمر برازافيل فاتحتها. ذلك المؤتمر الذى وضع الخطوط الأولى للاستقلال الذاتي لهذه المستعمرات، كما كان أساسا لدستور الجمهورية الرابعة أو الاتحاد الفرنسي.